﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ[1] بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ[2] وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾

وساعة ترى التنوين في قوله الحق ﴿ وكلا ﴾ فاعلمْ أن المقصود هو قصة كل رسول جاء بها الحق - سبحانه - في القرآن الكريم.

وحين يتكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن فعل قد أحدثه ؛ فلنا أنْ ننظر: هل هذا الفعل مأخوذ من صفة له - سبحانه - أم مأخوذ من اسم موجود ؟ فيحقّ لنا أن نأخذ الاسم ونأخذ الفعل مثل قوله- تعالى: ﴿ خَلَقَكُمْ[3] .. (٧٠) ﴾ [النحل]

نعلم منه أنه - سبحانه - خالق ، ولكن إنْ جاء فعل ليس له أصل في أسماء الله الحسنى، فإياك أنْ تشتقَّ من الفعل اسماً لله.

ومثال ذلك قوله - سبحانه : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ[4] .. (١٢٠) ﴾ [هود]

والذي يقصُّ هنا هو الله - سبحانه - لكن لا أحد في إمكانه أن

---

(١) ثَبَّتَهُ : جعله ثابتاً مُتمكّنا . قال تعالى : ﴿ وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) ﴾ [الإسراء] أي : جعلناك ثابتاً ودفعنا عنك أسباب الضعف. [القاموس القويم: ١/١٠٥].

(٢) قوله تعالى : ﴿ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ .. (١٢٠) ﴾ [هود] : «أي هذه السورة. قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف، وعن الحسن في رواية عنه وقتادة: في هذه الدنيا . والصحيح : في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء ، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق، ونبأ صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتذكر بها المؤمنون» قاله ابن كثير في تفسيره (٢/٤٦٥).

(٣) يقول رب العزة سبحانه: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ .. (٧٠) ﴾ [النحل]

(٤) قَصَّ الكلام أو الأخبار : يقصها قصاً وقصصاً تتبعها ورواها وحكاها . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ ..(٢٥) ﴾ [القصص]. وقصَّ الأمر قصاً تتبعه ، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا .. (٦٤) ﴾ [الكهف] . والقصص مصدر يُطلق على ما يُروى من الأخبار، ومنه قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣) ﴾ [يوسف]. [القاموس القويم بتصرف جـ٢ ص ١٢٠].

يقول: إن الله قصَّاص ، مثلما لا يحق لأحد أن يقول: إن الله ماكر ، رغم أن الله - سبحانه - قد قال: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ[1] (٣٠) ﴾ [الأنفال]

وكذلك لا يصح لأحد أن يقول : الله المخادع ، رغم أن الحق - سبحانه - قد قال: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ[2] .. (١٤٢) ﴾ [النساء]

وهكذا نتعلم أدب الحديث عن الله المتصف بكل صفات الكمال والجلال ؛ وأن نكتفي بقول: إن مثل هذا الفعل جاء للمشاكلة[3] ما دام ليس له وجود ضمن أسماء الله الحسنى.

---

(١) مَكَرَ يمكر مكراً: دبَّر الشر لغيره في خفية واحتيال. قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ .. (١٢٣) ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى : ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ..(٢١)﴾ [يونس] أي: تدبير سيئ بقصد صرفها عن وجهها وصدّ الناس عنها. وإذا أسند المكر إلى الله سبحانه فمعناه إبطال مكر الماكرين وإيقاع العقوبة بهم من حيث لا يشعرون، كقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ [آل عمران] ، وقوله تعالى : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠)﴾ [النمل]. [القاموس القويم: ٢/٢٣١ ، ٢٣٢].

(٢) خدعه يخدعه خدعاً وخديعة: أظهر له خلاف ما يُخفيه ليوقعه في مكروه من حيث لا يعلم. قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ .. (٦٢)﴾ [الأنفال] وخادعه: خدعه أو حاول ذلك. قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ .. (١٤٢)﴾ [النساء] أي : يُظهرون الإيمان نفاقاً ليخدعوا الله ورسوله والمؤمنين، والله مبطلٌ خداعهم، وكاشف أمرهم، ومعاقبهم على خداعهم. [القاموس القويم: ١/١٨٨].

(٣) «المشاكلة: ذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً . فالأول : كقوله تعالى : ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ..(١١٦)﴾ [المائدة] ، وقوله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ..(٥٤)﴾ [آل عمران]، فإن إطلاق النفس والمكر في جانب الباريء تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه. ومثال التقديري قوله تعالى : ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ .. (١٣٨)﴾ [البقرة] أي : تطهير الله ؛ لأن الإيمان يطهر النفوس، فعبر عن الإيمان بـ « صبغة الله » للمشاكلة بهذه القرينة، الإتقان للسيوطي (٣/٢٨٢).

وهنا يقول الحق – سبحانه :

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

و « أنباء » جمع «نبأ» ، وهو الخبر العظيم الذى له أهمية ، والذى يختلف به الحال عند العلم به، وأخبار الرسل ـ عليهم السلام ـ تتناثر لقَطات مختلفة عَبْرَ سور القرآن الكريم ، موضحةً ما جاء به كل رسول معَالجاً الداء الذى عانى منه قومه ، وكذلك ما عاناه كل رسول من عَنَت القوم المبعوث لهم ، وجاء ذكر تلك الأنباء فى القرآن لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ؛ لأن الرسول سيصادف فى الدعوة المتاعب والصعاب.

وقد ذكر القرآن بعضاً من تلك المواقف، يقول الحق – سبحانه:

﴿ وَزُلْزِلُوا[1] حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ[2] وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

ويقول الحق – سبحانه – مصوِّراً حال المؤمنين[3] :

---

(١) زلزل الشىء: حركه حركة عنيفة مكررة. قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١)﴾ [الزلزلة] أى: أصابها الزلزال عند قيام الساعة. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١)﴾ [الحج]. وقوله تعالى : ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١)﴾ [الأحزاب] أى: أزعجوا وخافوا وقلقوا واضطربوا اضطراباً شديداً ـ على التشبيه بالشىء المادى. [القاموس القويم: ١/٢٨٨].

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (١/٩٤٩): «الرسول هنا شَعْيا فى قول مقاتل ، وهو اليسع. وقال الكلبى: هذا فى كل رسول بُعث إلى أمته وأجهد فى ذلك حتى قال: متى نصر الله؟ وروى عن الضحاك قال: يعنى محمداً ﷺ وعليه يدل نزول الآية. والله أعلم».

(٣) وذلك فى غزوة الأحزاب، فى شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور. وفيها تحالفت قريش ومن تابعها مع يهود بنى النضير وبنى قريظة، فكان مجموعهم عشرة آلاف، أما المسلمون فكانوا ثلاثة آلاف، وظل المسلمون مُحاصرين داخل المدينة قريباً من شهر. [باختصار من تفسير ابن كثير (٣/٤٧٠)].

﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ[1] الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ[2] وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا[3] (١٠)﴾ [الأحزاب]

ومثل هذه المواقف تقتضى تثبيت الفؤاد ؛ بمعنى تسكينه على منطق اليقين الإيمانى بربٍّ أرسله رسولاً ليبلِّغ منهجاً ، وما كان الله سبحانه ليرسل رسولاً ليبلِّغ منهجاً ثم يُسلمه لأعدائه.

فإذا ما ذكر له أخبار الرسل والصعاب التى تعرضوا لها تهون عليه المصاعب التى يتعرض لها ، ويثبت فؤاده.

و«الفؤاد» هو ما نقول عنه: «القلب»، وهو وعاء العقائد، بمعنى أن المخ يستقبل من الحواس - وسائل الإدراكات من عين ترى، ومن أذن تسمع، ومن أنف يشُم، ومن فَمٍ يستطعم، ومن كفٍّ تلمس -

(١) زاغ يزيغ زيغاً وزيغاناً : مال عن القصد . وزاغ البصر : اضطرب ولم يحقق ما يرى ، أو انحرف عن القصد فلم ير شيئاً. قال تعالى : ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧)﴾ [النجم] أى: ما انحرف بصر الرسول ﷺ عن رؤية الملك ، ولا طغى فرأى أكثر مما أمامه ، بل رأى الملك رؤية صادقة . وقوله تعالى فى وصف فزع بعض الناس فى المدينة حين أحاطت بهم الأعداء فى غزوة الأحزاب : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ .. (١٠)﴾ [الأحزاب] أى : اضطربت لشدة الفزع. [القاموس القويم: ١/ ٢٩٤] بتصرف.

(٢) الحنجرة - فى اللغة - : الحلقوم والحلق . وهى علمياً تسمى القصبة الهوائية ، ويمر منها النفس زفيراً وشهيقاً . قال تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ..(١٠)﴾ [الأحزاب] كناية عن شدة الكرب والضيق.

(٣) الظنون : ما يحصل فى النفس عن أمارة فهو شك راجح، وفعله من أفعال الرجحان - من باب نصر - والظن : مصدر . والظن : اسم لهذا الخاطر الذى يحصل فى النفس . قال تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)﴾ [النجم] وجمعه : ظنون، وقرىء : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠)﴾ [الأحزاب] الظنونا - بألف فى الوصل، وفى الوقف - وبغير ألف قراءة . [القاموس القويم : ١/ ٤١٧].

فتتولد المعلومات التى يصنفها المخ ، ويرتبها كقضايا عقلية.

ويناقش المخ تلك القضايا العقلية إلى أن تصح القضية العقلية صحة لا يأتى بعدها ما ينقضها ، فيسقطها المخ فى الفؤاد لتصير عقيدة ؛ لا تطفو بعدها إلى العقل لتُناقش من جديد ؛ ولذلك يسمونها «عقيدة» – من العقدة – فلا تتذبذب بعد ذلك.

إذن : فالفؤاد هو الوعاء القابل للقضايا التى انتهى المخ من تمحيصها[1] تمحيصاً وصل فيه إلى الحق ، وأسقطها على القلب ليدير حركة الحياة على مُقْتضاها.

وعلى سبيل المثال : نجد الشاب الذى يفكر فى مستقبله ، فيدرس مزايا وعيوب المهن المختلفة ليختار منها التخصص الذى يتناسب مع مواهبه ؛ وأحلامه ، ثم يدرس المحسَّات التى استقبلها بحواسه ليُمحِّصها بعقله ؛ وما ينتهى إليه عقله يسقطه فى قلبه ؛ ليصير عقيدة يدير بها حركة حياته.

مثال هذا : أنه قد استقر فى وجدان الناس وعقولهم أن النار مُحْرقة، ولكن من أين جاء هذا اليقين فى أن النار محرقة ؟ نقول : جاء من أمر حسى بأن شاهد الناس أن مَنْ مسَّته النار أحرقته.

لابد – إذن – أن يكون القلب ثابتاً ؛ غير مذبذب.

(١) مَحَصَ الشيءَ ومحَّصه : خلَّصه من عيوبه . يقال : محص المعدن بالنار : خلَّصه مما يشوبه . ومحص السيف : جلاه . ومحَّص الله التائب من الذنوب : طهَّره منها . ومحَّص فلاناً : ابتلاه واختبره . [المعجم الوسيط].

ولذلك يقول الحق - سبحانه :

﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

لأن الفؤاد هو الوعاء الذى من مهمته أن يكون مستعداً لاستقبال كلمة الحق؛ وليقبل تنبيه الذكرى ، وجلال الموعظة ، وكمال الوارد من الحق - سبحانه - وما يأتى من الحق - سبحانه - هو الحق أيضاً ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يطرأ عليه تغيير.

وحق الحق ينبوع العقيدة الذى ستصدر عنه طاعة التكليف ، ولابد أن يكون الإنسان على ثقة من حكمة المكلِّف قبل أن يُقبِلَ على التكليف ؛ لذلك لزم أن يأتى الدليل على وجود الحق - سبحانه - وهو قمة الوجود الأعلى ـ قبل أن تأتى الموعظة[1] ، ويكون الإيمان بالوجود الأعلى الذى لا يتغير ولا تطرأ عليه الأغيار هو السابق لمجىء تلك الموعظة.

لأن الموعظة قد تتطلب من الإنسان شيئاً يكره أن يلتزم به ، وهى هنا صادرة من الحق - سبحانه - الذى خلق ، ولا يمكن أن يغش أو يخدع مخلوقاته ، ويحملها لك رسول منه - سبحانه.

وقد تكره الموعظة إن صدرت عن إنسان مثلك ؛ لأنه لن يَعظك إلا بكمال يتميز به ليعدد نقصاً فيك ، وإن لم يكن الواعظ يتمتع بالكمال الذى يعظ به ؛ فالموعوظ سيردُّ على الواعظ قائلاً : فلْتعظْ نفسك أولاً.

---

(١) الموعظة : ما يُوعظ به من قول أو فعل . قال تعالى : ﴿ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .. (١٢٥) ﴾ [النحل] . ووعظه يعظه وعظاً وعظة : نصحه بالطاعة وأرشده إلى فعل الخير [القاموس القويم بتصرف ٢/ ٣٤٥].

ولذلك نجد قول الحق - سبحانه:

﴿ كَبُرَ مَقْتاً[١] عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

لأن الواعظ الذى يَعِظُ بما لا يطبقه على نفسه يعطى الحجة للموعوظ ليرفض الموعظة ؛ وليقول لنفسه : « لو كان فى هذا الأمر خير لطبَّقه على نفسه ».

وهكذا بيَّنت الآية الكريمة موقف الرسول ﷺ كمُثَبِّت ، وأيضاً موقف المؤمنين برسالته كمذكِّرين من الرسول بأنهم سيتعرضون للمتاعب؛ متاعب مشقة التكليف التى سيعانى منها مَنْ لايأخذ التكليف بعمق الفهم.

فقد يرى بعض المكلَّفين - مثلاً - أن الأمر بغَضِّ الطَّرْف[٢]

---

(١) مَقَتَهُ يمقته مقتاً : أبغضه بغضاً شديداً؛ لأمر قبيح فعله.
ومَقْتُ الله : غضبه وانتقامه وعذابه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ..(١٠)﴾ [غافر] أى : أن غضب الله عليكم أكبر من بغض بعضكم بعضاً، وانتقام بعضكم من بعض. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً (٢٢) ﴾ [النساء] أى: أن زواج من سبق أن تزوجها الأب يعتبر فعلة فاحشة شديدة القبح، وتكون سبباً فى مقت الناس وبغضهم الشديد لمرتكبها، وسبباً فى مقت الله وغضبه وانتقامه من فاعلها؛ لأنها عقوق بالآباء وخلْط للأنساب.[القاموس القويم: ٢/ ٢٢١].

(٢) الطرف : جانب العين، ويطلق على العين وعلى البصر. قال تعالى : ﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ..(٤٥)﴾ [الشورى] أى: من جانب العين فى خفاء. وقوله تعالى : ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨)﴾ [الصافات] أى: غاضات البصر من العفة، وقوله تعالى: ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ..(٤٠)﴾ [النمل] أى: بصرك، أى مقدار غمضة العين وفتحها. [القاموس القويم، مادة: طرف].

حرمانٌ من شهوة طارئة ولا يَسْبر غور(١) الفهم بأن فى غَضِّ الطَّرْف أمراً لكافة المؤمنين أن يغضوا الطرف عن محارمه ، وقد يرى فى الزكاة أنها أَخْذٌ من ماله ، ولا يَسْبر غور الفهم بأن فى الزكاة تأميناً له إنْ مرَّت عليه الأغيار وصار فقيراً ؛ عندئذ سيقدم له المجتمع الإيمانى التأمين الاجتماعى الذى يحميه وعياله من مَغبَّة السؤال.

وعمق الفهم أمر مطلوب؛ لأن الحق - سبحانه - هو القائل:

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ(٢) الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ [النساء]

لأنك حين تتدبر المعانى ستعلم أن التكليف هو تشريف لك ؛ وستقول لنفسك : « ما كلفنى الله إلا لخير نفسى ؛ وإن ظهر أنه لخير الناس » .

---

(١) سَبَرَهُ سَبْراً : حَزَرَهُ ، أو خَبَرَهُ . يقال: سَبَرَ الجرح: قاس غَوْرَهُ بالمسبار. وسَبَرَ فلاناً: خَبَرَه ليعرف ما عنده. والغَوْر: كل منخفض من الأرض، والغور من كل شيء: قعره وعمقه. يقال: سَبَرَ غوره: تبيَّن حقيقته وسرَّه. ويقال: فلان بعيد الغَوْر: داهية. وماء غَوْر: غائر. وفى التنزيل العزيز: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠) ﴾ [الملك]. [المعجم الوسيط: مادة (سبر)، (غور)].

(٢) دَبَّر الأمر: نظر فى عواقبه وأدباره ليقع على ما يرى فيه الخير له، وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ..(٣) ﴾ [يونس] أى: يقضيه ويقدِّره وينفذه على حسب حكمته وإرادته. وقوله تعالى : ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) ﴾ [النازعات] هم الملائكة يدبرون أمور الخلق بإذن الله وبمقتضى حكمته وإرادته.

وتدبَّر : تأمل فى أدبار الأمور وعواقبها، أو تأمل ليعرف حقائق الأمور. قال تعالى : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) ﴾ [محمد] أى: هل عجزوا وعَمُوا فلا يتأملون معانى القرآن، ويبصرون ما فيه من حكم بالغة فيؤمنون به - وبين همزة الاستفهام وفاء العطف فعل محذوف دائماً فسَّرناه هنا بقولنا: أعَجَزوا فلا يتدبرون - وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ .. (٦٨) ﴾ [المؤمنون] أى : أعجزوا فلم يدبروا. والأصل: يتدبروا، قُلبت التاء دالاً، وأدغمت فى الدال. [القاموس القويم: ١/ ٢٢١].

ومن المتاعب أيضاً ما يلقاه المؤمنون من عنت المستفيدين من الفساد ؛ هؤلاء الذين يعيشون على الانتفاع من المفاسد ، ويواجهون كل من يريد أن يقضى على الفساد ؛ لأن الفساد فى الأرض لا يعيش إلا إذا وُجِد منتفعٌ بهذا الفساد ؛ والمنتفع بالفساد يكره ويعلن الخصومة لكلِّ مقاوِم له.

إذن : فموقف خصوم النبى ﷺ موقف طبيعى لصالحهم، ولكنهم - لحمقهم - حددوا الصالح بمصالحهم الآنية[1] فى الحياة الدنيا ؛ ولم ينظروا إلى عاقبة ما يؤول إليه أمرهم فى الآخرة نعيماً أو عذاباً[2].

ولو أنهم امتلكوا البصيرة ؛ لعرفوا أن من مصلحتهم أن يوجد مَنْ يُقوِّمهم حتى لا يقدموا لأنفسهم شراً يوجد لهم فى الآخرة.

ولو أنهم فَطِنوا ؛ لعلموا أن الرسول كما جاء لصالح المستضعفين المستغلين بالفساد ؛ جاء أيضاً لصالحهم ، ولو أنهم كانوا على شىء من التعقل ؛ لكانوا من أنصار رسول الله ﷺ ؛ ولكان

---

(١) المصالح الآنية : العاجلة . نسبة إلى (الآن) وهو الأمر العاجل الحال، وهو ظرف للوقت الحاضر معرف بأل دائماً، ومبنى على الفتح. قال تعالى : ﴿ قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ .. (٧١) ﴾ [البقرة] [القاموس القويم ١/ ٤٥].

(٢) ولذلك قال عنهم رب العزة : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) ﴾ [الروم] ثم يلفت الحق نظرهم إلى الكون وما فيه وإلى عاقبة المكذبين فيقول: ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) ﴾ [الروم]

من الواجب عليهم كلما حدثتهم أنفسهم بالسعى إلى الفساد ؛ وسمعوا من الرسول ﷺ ما ينتظرهم نتيجة لهذا الفساد ؛ أن يتبعوه وأن يشكروه ؛ لأنه خلَّصهم من طاقة الشر الموجودة فيهم.

وهنا يوضح الحق - سبحانه - لرسوله : أنت لست بدعاً من الرسل[1]، وكل رسول تعرَّض للمتاعب مثلما تتعرض أنت لمثلها[2]، وأنت الرسول الخاتم ، ولأن الدين الذى جئتَ به لن يأتى بعده دين آخر ؛ لذلك لابد أن تتركز المتاعب كلها معك ؛ فكُنْ على ثقة تماماً أنك مُصادفٌ للمتاعب .

ولذلك نثبِّت فؤادك بما نقصُّه عليك من أنباء الرسل ؛ لأن هذا الفؤاد هو الذى سيستقبل الحقائق الإيمانية من قمة «لا إله إلا الله» إلى أن يكون ذكرى تذكِّرك والمؤمنين معك.

وهكذا بيَّنتْ الآية موقف الرسول ﷺ كمثبَّت ؛ وموقف المؤمنين كمذكَّرين من الرسول ؛ لأنهم سيتعرضون للمتاعب أيضاً.

ونحن نعرف جميعاً ما قاله رسول الله ﷺ للأنصار حين بايعوه فى العقبة على نصرته ، وقالوا : إنْ نحن وفينا بما عاهدناك عليه ؛

---

(١) يقول رب العزة سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ..(٩)﴾ [الأحقاف] أى: ما كنت مبتدعاً من تلقاء نفسى ما أدعو إليه، إن أتبع إلا ما يُوحى إلىّ.

(٢) يقول الحق سبحانه مخاطباً نبيه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)﴾ [الأنعام]

فماذا يكون لنا ؟ ولم يَقُلْ لهم ﷺ : « ستملكون الدنيا ، وستصبحون سادة الفُرْس والروم » ، بل قال لهم : « لكم الجنة »[1].

لأنه ﷺ يعلم أن منهم مَنْ سيموت قبل أن تتحقق تلك الانتصارات ؛ لذلك وعدهم بالقَدْر المشترك الذى يتساوى فيه مَنْ يموت بعد إعلانه للإيمان ، وبين مَنْ سيعيش ليشهد تلك الانتصارات.

وهكذا تبينا كيف تضمَّنت الآية الكريمة تثبيت فؤاد الرسول ﷺ ؛ وكيفية إعداد هذا الفؤاد لاستقبال الحق والموعظة وذكرى المؤمنين معه.

هذا هو الطرف الأول ، فماذا عن الطرف الثانى ؛ الطرف المكذِّب للرسول؟

كان ولابد أن يتكلم الحق - سبحانه - هنا عن المكذِّبين للرسول؛ لأن استدعاء المعانى يجعل النفس قابلة للسماع عن الطرف الآخر.

وما دام الحق - سبحانه - قد تكلم عن تثبيت وعاء الاستقبال،

---

(١) كان ذلك فى بيعة العقبة الثانية وهى الكبرى، وذلك أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة الأنصارى: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزْى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكَة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فمالنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا؟ قال: «الجنة». قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه. [سيرة النبى لابن هشام ٢/٥٥].

والموعظة ، وتذكير المؤمنين ؛ لحظة أن تخور[١] منهم العزائم ، فلا بُدَّ - إذن - أن يتكلم - سبحانه - عن القسم الآخر ؛ وهو القسم المكذِّب ، فيوضح - سبحانه - لرسوله أن له أن يتحداهم ولا يتهيَّب.

يقول الحق - سبحانه:

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ[٢] إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

أى : اصنعوا ما شئتم ، ومعنى ذلك أنه ﷺ مستندٌ إلى رصيد قويٍّ من الإيمان بإله لا يهوله أن يستعد له الخصم ؛ فهو ﷺ والذين معه لا يواجهون الخصم بذواتهم ؛ ولا بعدَدهم وعُددهم ؛ وإنما يواجهونه بالركن الركين الذى يستندون إليه ، وهو الحق سبحانه وتعالى.

ونحن نرى فى حياتنا اليومية أن أى قائد فى معركة إنما يشعر بالثقة حين يصل إلى علمه أن مدداً سوف يصله من الوطن الذى

---

(١) الخَوَر : الضعف. خار الرجل: ضعف وانكسر. والخوَّار: الضعيف الذى لا بقاء له على الشدة. [لسان العرب - مادة : خور].

(٢) المكانة: رفعة الشأن والرزانة والتؤدة. قال تعالى :﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .. ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام] أى: برزانة وتؤدة وتبصُّر، وقُرىء: «على مكاناتكم» بالجمع. [القاموس القويم ٢/٢٣٢].

والمكانة: الحالة التى يكون عليها المرء من قدرة أو عجز أو إيمان أو كفر ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .. ﴿٩٣﴾﴾ [هود] أى: على الحالة التى أنتم عليها، وقوله تعالى: ﴿لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ .. ﴿٦٧﴾﴾ [يس] أى : على الحالة التى هم عليها حين عنادهم وكفرهم. [القاموس القويم: ٢/ ١٧٩ ، ١٨٠].

يحارب من أجله؛ لأنه سيعزز من قوته، فما بالنا بالمدد الذى يأتى ممن لا ينفد ما عنده[1]؛ وممن لا يُجير عليه أحدٌ ؛ فهو يُجير ولا يُجَار عليه.

ولذلك نلاحظ أن الأنبياء استظلوا بتلك المظلة، فموسى - عليه السلام - حين كاد الفرعون أن يلحق به؛ ورأى قومه أنْ لا نجاة لهم؛ فالبحر أمامهم والعدو وراءهم؛ صرخوا:

﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ[2] .. (٦١) ﴾ [الشعراء]

لكن موسى - عليه السلام - يطمئنهم :

﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء]

فموسى -عليه السلام - يعلم أنه مُستند بقوة الله لا بقوة قومه، وأمدَّه الله - سبحانه - بمعجزة جديدة:

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ..(٦٣) ﴾ [الشعراء]

فينفلق البحر ؛ ليفسح بين مياهه طريقاً يابسة ؛ وسار موسى عليه السلام وقومه ، وفكر موسى فى قطع السبيل على عدوه حتى

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) ﴾ [الفتح] ، ويقول تعالى فى شأن غزوة حنين : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا .. (٢٦) ﴾ [التوبة]

(٢) أدركه : لحقه. قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ..(٩٠) ﴾ [يونس] على المجاز، كان الغرق عدو مطارد لحق فرعون فأهلكه.

والدرك - بفتح الراء ، وبسكونها - : اسم مصدر بمعنى الإدراك واللحاق. قال تعالى : ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَىٰ (٧٧) ﴾ [طه] أى : لا تخاف أن يدركك فرعون وجنوده. [القاموس القويم : ١/٢٢٦].

لا يسير فى نفس الطريق المشقوق بأمر الله عبر معجزة ضرب البحر بالعصا، وأراد موسى - عليه السلام - أن يضرب البحر ضربة ثانية ليعود البحر إلى حالة السيولة مرة أخرى، فيقول له الله - سبحانه:
﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا[1] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) ﴾ [الدخان]

أي : اتركه على ما هو عليه ؛ لينخدع فرعون ويسير فى الطريق اليابسة، ثم يعيد الحق - سبحانه - البحر كما كان ، وبذلك أنْجَى الحق - سبحانه - وأهْلَكَ بالشىء الواحد[2] ؛ وهذه لا يقدر عليها غير الله - سبحانه وتعالى وحده.

وهكذا يَهَبُ الحق - سبحانه - المؤمنين به القدرة على تحدى الكافرين. والإيمان كله معركة من التحدى ؛ تحدٍّ فى صدق الرسول كمبلِّغ عن الله ، ومعه معجزة تدل على رسالته، وتحدٍّ فى نصرة الرسول ومَنْ معه من قلة مؤمنة ؛ فيغلبون الكثرة الكافرة.

والحق - سبحانه يقول: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) ﴾ [البقرة]

وهكذا يشيع التحدى فى معارك الإيمان.

وقد تميَّز كل رسول بمعجزة يتحدى بها أولاً ؛ ثم ينتهى دورها؛ لينزل له بعدها منهج من السماء ؛ ليبشِّر به قومه، لكن رسول الله ﷺ

---

(١) رها البحر يرهو رهواً : سكن فهو راه. ورَهْوٌ : مصدر يوصف به بلفظه ، قال تعالى : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا .. (٢٤) ﴾ [الدخان] ساكن الأمواج؛ ليغتروا، فينزلوا فيه ، أو ساكن النفس، فهى حال من المفعول به وهو البحر، أو من الفاعل وهو الضمير المستتر «أنت» وهو موسى عليه السلام. أى: يكون هادئاً مطمئناً إلى النجاة. [القاموس القويم: ١/ ٢٧٩].

(٢) فالله سبحانه وتعالى أنجى موسى ومَنْ معه ، وأهلك فرعون وجنوده بالشىء الواحد ، وهذا دليل على طلاقة القدرة.

تميَّز بمعجزة لا تنتهى ، وهى عَيْنُ منهجه ؛ لأنه رسول إلى كل الأزمان وإلى كل الأمكنة[١] ؛ فكان لابد من معجزة تصاحب المنهج إلى يوم القيامة.

ولذلك نجد كل مؤمن بالرسالة المحمدية يقول : محمد رسول الله والقرآن معجزته إلى أن تقوم الساعة.

والحق - سبحانه - يقول هنا: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .. (١٢١) ﴾ [هود]

ونحن نعلم أن كل كائن منَّا له مكان ، أى : له حَيِّز وجِرْم[٢]. ويقال : فلان له مكانة فى القوم ، أى : له مركز مرموق ؛ إذا خلا منه لا يستطيع غيره أنْ يشغله ، وهو مكان يدلُّ على الشرف والعظمة والسيادة والوجاهة ونباهة الشأن.

فقول الحق : ﴿ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ .. (١٢١) ﴾ [هود]

أى : اعملوا[٣] على قَدْر طاقتكم من عُدة ومن عَدد، فإن لمحمد ﷺ ربّاً سيهديه وينصره، وفى هذا تهديد لهم؛ وليس أمراً لهم؛ لأنهم ككفار لن يمتثلوا لأمر منْ عَدوِّهم.

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لى الغنائم، وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بى النبيون» أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٢٣) كتاب المساجد.

(٢) الجِرْم : الجسد أو الجسم. وهو مُجَسَّم فيأخذ مكاناً وحيزاً فى الوسط الذى هو فيه.

(٣) الأمر هنا للتهديد ، وهو لون من ألوان علوم البلاغة.

ولو أنهم امتثلوا لأمر محمد وربِّ محمد لَمَا كانوا كافرين؛ بل لأصبحوا من الطائعين.

وحين يقول لهم -سبحانه- في آخر الآية :

﴿ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) ﴾ [هود]

فمعنى ذلك أن كل ما في قدراتكم هو محدود لأنكم من الأغيار الأحداث[1]؛ أما فعل الله - تعالى - فهو غير محدود ؛ لأنه - سبحانه- قديمٌ أزليٌّ لا تحده حدود ، ولن يناقض عمل المُحدَث الحادث عمل القديم الأزلي ، فقوة الحادث المُحدَث موهوبة له من غيره ، أما قوة الحق - سبحانه - فهي ذاتية فيه.

ونحن نعلم أن أيَّ عمل إنما يُقَاس بقوة فاعله ، وخطأ المستقبلين لمنهج الله أنهم إذا جاء عمل ؛ نَسَوا مَن الذي عَمِلَ العمل ، ولو كان العمل من فعل البشر لَحقَّ للإنسان أن يتكلم، لكن إذا ما كان العمل من الله - تعالى - فليلزمِ الإنسان حدوده.

ومثال ذلك: هؤلاء الذين جادلوا في مسألة الإسراء التي قال فيها الحق - تبارك وتعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ[2] بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ

---

(١) الأحداث : الأشياء الحادثة، أي لم يكن لها وجود ثم وجدت، وتأتي عليها عوامل الفناء والتغيُّر.

(٢) اسرى به : جعله يسرى، أو حمله معه على السَّيْر ليلاً. قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] وهنا يُشعر أن الله تعالى كان رفيقاً للرسول ﷺ ومُعيناً له في إسرائه. وقوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) ﴾ [الدخان] أمر الله سبحانه موسى عليه السلام أن يحمل قومه على الإسراء ويكون لهم دليلاً ومعيناً وهادياً. [القاموس القويم: ٣١٢/١] بتصرف.

الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ[1] .. (١) ﴾ [الإسراء]

وقالوا : إننا نضرب إليها أكباد الإبل شهراً، فكيف يقول إنه أتاها فى ليلة؟

وكان الرد عليهم: إن محمداً لم يَقُلْ إنه سَرَى من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى بقوته هو، بل أُسْرِيَ به، والذى عمل ذلك هو الله - سبحانه - وليس محمداً، فقيسوا هذا العمل بقوة الله تعالى وليس بقوة محمد.

ويقول الحق - سبحانه - بعد ذلك:

﴿ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ[2] (١٢٢) ﴾

فى هذه الآية نلمس الوعيد والتهديد ؛ فالكافرون ينتظرون وعد الشيطان لهم ، والمؤمنون ينتظرون وعد الرحمن لهم[3].

ولذلك سيقول المؤمنون للكافرين يوم القيامة :﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا

---

(١) البركة: زيادة الخير والنماء والسعادة . قال تعالى :﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٩٦) ﴾ [الأعراف] . وبارك الله الشيء، وبارك فيه وعليه وحوله . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ..(٨) ﴾ [النمل] ، وقوله تعالى : ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ..(٣٥) ﴾ [النور] أى : عظيمة الخير، كبيرة النفع. [القاموس القويم: ١/٦٥].

(٢) انتظره : ترقَّبه وتوقَّعه . وقال تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ (٣٠) ﴾ [السجدة] أى: ترقَّب ما سيحل بهم، إنهم مترقبون. [القاموس القويم : ٢/٢٧٣].

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ..(٤٤)﴾ [الأعراف]

وفى انتظار الكفار تهديد لهم ، وفى انتظار المؤمنين تثبيت لقلوبهم، ولو لم تأت الأحداث المستقبلة كما قالها القرآن لتشكك المؤمنون ، ولكن المؤمنين لم يتشككوا ، وهكذا نتأكد أن القول بالانتظار لم يكن ليصدر إلا منْ واثقٍ بأن ما فى هذا القول سوف يتحقق.

وقد جاء الواقع بما يؤيد بعض الأحداث التى جاءت فى القرآن.

ألم ينزل قول الحق - سبحانه :

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ [1](٤٥)﴾ [القمر]

وكان وقت نزول هذا القول الحكيم إبان ضعف البداية[2]، حتى قال عمر - رضى الله عنه - [3] : أىُّ جَمْعٍ يهزم ؟ لأن عمر حينئذ كان يلمس ضعف حال المؤمنين، وعدم قدرة بعض المؤمنين على

---

(١) ولّى المحارب دبره : كناية عن فراره . قال تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] أى : ويفرون ، وجمع الدبر : أدبار . قال تعالى : ﴿وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١)﴾ [آل عمران] أى : يفرون منكم منهزمين. وقوله تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] أى : سيُهزم الجيش الذى جمعوه، أو ستُهزم جماعتهم. [القاموس القويم: ١٢٧/١] بتصرف.

(٢) قال ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين . نقله القرطبى فى تفسيره (٦٥٤٦/٩).

(٣) أورده ابن كثير فى تفسيره معزواً إلى ابن أبى حاتم، قال عمر: أى جمع يهزم ؟ أى جمع يُغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع ، وهو يقول : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] فعرفت تأويلها يومئذ.

حماية نفسه، ثم تأتي غزوة بدر ؛ ليرى المؤمنون صدق ما تنبأ به رسول الله ﷺ .

ومن العجيب أنه ﷺ خطط على الأرض مواقع مصرع بعض كبار الكافرين[1] ، بل وأماكن إصاباتهم، وجاء ذلك قرآناً يُتلى على مر العصور، مثل قوله الحق: ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ[2] (١٦) ﴾ [القلم]

وهكذا شاء الحق - سبحانه - أن يأتي الواقع بما يؤيد صدق الرسول ﷺ ، كما شاء - سبحانه - أن يُنزل على الرسول لقطات من قصص الرسل الذين سبقوه لشد أزْره ، وليثبِّت فؤاده ، ويذكِّر المؤمنين فيزدادوا إيماناً.

ثم يختتم الحق - سبحانه - سورة هود بقوله الكريم :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ[3] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٢٨٧٣) عن انس بن مالك قال: كنا مع عمر بين مكة والمدينة، وأنشا يحدثنا عن أهل بدر، فقال: إن رسول الله ﷺ كان يُرينا مصارع أهل بدر بالأمس، يقول : «هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله» قال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حدَّ رسول الله ﷺ» وكذا أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٢١٩، ٢٥٨) وفيه أن رسول الله ﷺ كان «يضع يده على الأرض ههنا وههنا، فما أماط أحدهم عن موضع يد رسول الله».

(٢) الخرطوم : الأنف أو مقدم الأنف، والأنف رمز العزة عند العرب، ويقال : شُمُّ الأنوف أي : أعزاء . والوسم على الأنف : إذلال وإهانة. قال تعالى : ﴿ سنسمه على الخرطوم (١٦) ﴾ [القلم] أي : سنذله نهاية الإذلال . قيل : إن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقد ضُرب على أنفه بالسيف يوم بدر ، قبل مقتله ، فصدقت عليه الآية، وأخبرت بما سيحدث له قبل حدوثه، وقد أسلم من أبنائه اثنان، أحدهما سيدنا خالد بن الوليد سيف الله وفاتح العراق وقاهر الروم. [القاموس القويم: ١/ ١١٩].

(٣) غاب الشيء يغيب غيباً : استتر عن العين أو عن علم الإنسان في المعنوي. والغيب : مصدر، ويسمى به ما غاب واستتر . قال تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب .. (٣) ﴾ [البقرة] والغيب : هو ما غاب عن العيون كالجنة والنار والملائكة والجن، وجمعه: غيوب. قال تعالى: ﴿ إنك أنت علام الغيوب (١٠٩) ﴾ [المائدة] . [القاموس القويم : ٢/ ٦٤].

أى : أن ما جاء من ذكر حكيم هو أمر غائب عنكم، يخبركم به الله ـ سبحانه ـ من خلال ما يُنزله على رسوله ﷺ .

وقد شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يحفظ هذا الذِّكْر الحكيم ، ثقةٌ منه ـ سبحانه ـ أنه إذا أخبرنا فى القرآن بخبر لم يجئ أوانه ، فلْنفهم أنه قد أخبر بما له من أزلية علم بالكون وما يجرى فيه ، وبما له من قدرة مطلقة تتحكم فيما يؤول إليه أمر المُختار من الكائنات – مؤمنهم وكافرهم – فإذا حدثنا القرآن بشىء مما يغيب عن الإنسان ، فلنعلم أنه إخبار بصدق مطلق.

وهناك الكثير مما يغيب عن الإنسان ، وهناك حجاب بين وسائل إدراك الإنسان وبين بعض المُدْركات ، ومرة يكون الحجاب حجابَ زمنٍ ، فإذا أخبر الله ـ تعالى ـ عن أمر لم نشهده من قديم قد أوْغَل[1] فى الزمن، ولم يقرأه النبى ﷺ فى كتاب ولم يسمعه من معلِّم[2] ؛ فهذا كَشْف لحجاب الماضى.

ولذلك فبعض سور القرآن الكريم يسميها العلماء «ماكُنات القرآن»

---

(١) وَغَل فى الشىء وغولاً : دخل فيه. ووَغَل: ذهب وأبعد، وتوغَّل فى الأرض: ذهب فأبعد فيها. وكذلك أوغل فى العلم. [لسان العرب ـ مادة : وغل].

(٢) وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت] قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون فى كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية. قال النحاس: دليلاً على نبوته لقريش؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أهل الكتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالت الريبة والشك. [انظر: تفسير القرطبى ـ ٥٢٤١/٧].

مثل قوله الحق: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ[1] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ[2] مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾ [آل عمران]

وغير ذلك من الآيات[3] التى تبدأ بقوله الحق : ﴿ مَا كُنتَ ﴾.

وقد كان هناك أناس فى ذلك الماضى يدركون ما صار غيباً عن الرسول ومَنْ معه؛ لكن الحق ـ سبحانه ـ أظهر هذا الغيب للرسول

---

(١) الأقلام : جمع قلم، وهو السهم أو خشبة تشبهه يكتب عليه رمز يدل على مقدار يُعطى لمن يخرج باسمه، وكانوا يستعملونه فى القرعة، ومن استعماله فى القرعة قوله: ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤) ﴾ [آل عمران] ، فالأقلام هنا سهام الاقتراع، وقد أجريت القرعة ففاز سهم زكريا فكفل مريم. [القاموس القويم: ٢/١٣٢].

(٢) كفله يكفله كفْلاً وكفالة: آواه ورعاه وربَّاه. وأكفله اليتيم، وكفَّله اليتيم: أسند إليه كفالته ورعايته، كقوله: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ..(٣٧) ﴾ [آل عمران] جعله كافلاً لها. وقال تعالى : ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) ﴾ [ص] أي: قال: اجعلنى كافلاً لها راعياً شئونها، مالكاً لها. [القاموس القويم: ٢/١٦٧].

(٣) هى تسع آيات فى القرآن الكريم ، منها آية آل عمران التى ذكرها الشيخ هنا، ومنها:
- ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا .. (٤٩) ﴾ [هود]
- ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) ﴾ [يوسف]
- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]
- ﴿وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾ [القصص]
- ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) ﴾ [القصص]
- ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) ﴾ [القصص]
- ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت]
- ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ..(٥٢) ﴾ [الشورى]

الذى لم يجلس إلى مُعلِّم بشـــهادة أعدائه ، وكذلك كـشف الحق - سبحانه - لرسوله حجاب الزمان وحجاب المكان.

ومَنْ ينكشف له حـجاب الزمان وحـجابُ المكان؛ إنمـا ينكشف له حجاب المستقـبل أيضاً ، والذى كشف هذا هو الحق - سبحانه - الذى قدَّر مَجِيء هذا العالم، وما سوف يحدث فيه إلى أن تقوم الساعة.

وقد طمر[1] الحق - سبحانه - فى القرآن أموراً لو كُشف عنها فى زمن بَعْثة الرسول ؛ لكان الحديث عنها فوق مستوى العقول والإدراك ؛ وتحدث - سبحانه - عن وقائع مستقـبلية بالنسبة للمعاصرين لرسول الله ﷺ ؛ لم يكن أحد يتوقعها.

وكـانت هناك معـركة بين أرقى حـضـارتين معـاصرتين للإســلام ؛ حضـارة فارس وحضارة الروم ، وكـانت الحضارتان تتنازعـان السيطرة وتوسيع مناطق النفوذ . وهَزَمَتْ فـارس - التى لا تؤمن بإله - امبراطورية الروم التى تعتنق المسيحية ، ولا تؤمن برسالة محمد الخاتمة.

لذلك حزن رسول[2] الله ﷺ لهزيمة الذين يؤمنون بإله فى السماء؛ فَيُسرِّى[3] الله - سبحانه - الأمر على رسوله، ويُنزل الحق - سبحانه -

---

(١) طمر الشيء: خَبَأه. والمطمورة حَفيرة تحت الأرض أو مكان تحت الأرض قد هُيِّيء خفياً يُطْمر فيها الطعام والمال، أى: يُخبأ. [لسان العرب - مادة : طمر].

(٢) إن فى حزن رسول الله ﷺ على هزيمـة الروم ، وهم أهل كتاب لدليلاً على أن الإســلام هو جماع الأديان السمـاوية ، وأن الأديان جميـعاً كالجـسد الواحد إذا اشـتكى منه عضو تداعى إليـه سائر الجسـد بالسهر والحمى - الحـديث إن إحساس رسول الله ﷺ بالـهزيمة وحزنه عليـها لدليل على رحابة الإسلام وعالميته مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ⦗١٣⦘ ﴾ [الشورى]

(٣) يسرو : يكشف عن فؤاده الألم ويزيله. وسُرِّى عنه: أى: كُشفَ عنه الخوف، وقد تكرر ذكر هذه اللفظة فى الحـديث، وخاصة فى ذكـر نزول الوحى عليه، وكلها بمـعنى الكشف والإزالة [لسان العرب - مادة: سرو].

قرآناً يُتلَى على مَـرِّ العصور وكل الأزمان؛ يحمل نبـوءة انتصار الروم بعد هزيمتهم من الفرس.

ويقول سبحانه : ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى[1] الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ[2] لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑤﴾ [الروم]

هكذا تأتي النبوءة في القرآن تحمل التحديد لميعاد نصر الروم في بضع سنين ؛ و «البِضْع» يقصد به من ثلاث لتسع سنوات.

---

(١) أدنى الأرض: أقربها. قـال ابن عطية: إن كانت الوقعة بأذرعـات ـ بين بلاد العرب والشام ـ فهي من أدنى الأرض بـالقياس إلى مكة. وإن كـانت الوقعـة بالجزيرة ـ موضـع بين العراق والشام ـ فهي أدنى الأرض بالقياس إلى أرض كسرى.

وإن كانت بالأردن فهي أدنى إلى أرض الروم. [نقله القرطبي في تفسيره (٧/ ٥٢٦٠)].

(٢) البـضـع : هو ما بيـن الثلاث إلى التسـع. أخـرج الترمـذي في سننه (٣١٩٤) عن نيـار بن مُـكرَّم الأسلمي قـال: لما نزلت : ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ④﴾ [الروم] فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم، وكـان المسلمـون يحبـون ظهور الروم عليهم؛ لأنهم وإياهم أهل كـتاب، وفي ذلك قـول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ⑤﴾ [الروم] فكانت قريش تحب ظهور فـارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمـان ببعث، فلما أنزل الله تعالى هذه الآية خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصيح في نواحي مكة : ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ④﴾ [الروم] قال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم زعم صاحـبكم أن الروم ستغلب فارساً في بضع سنين، أفـلا نراهنك على ذلك؟ قـال: بلى. وذلك قـبل تحـريم الرهان. فـارتهن أبو بكر والمشـركون وتواضـعوا الرهان، وقـالوا لأبي بكر: كم تجعل؟ البـضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسَمِّ بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه. قال: فسموا بينهم ست سنين. قال: فمضت الست سنين قـبل أن يظهروا فـأخذ المـشـركـون رَهْن أبي بكر، فلما دخلت السنة الـسابعة ظـهرت الروم على فارس فعـاب المسلمون على أبي بكر تسميـة ست سنين؛ لأن الله تعالى قال: في بضع سنين، قال: وأسلم عند ذلك ناس كثير. قال الترمذي: هذا حديث صحيح حسن غريب.

وإنْ قيل : تلك نبوءة محمد ، نقول : ما علْم محمد بأخبار المعسكرين ولا بأسرار السياسة الداخلية لهما؟

وقد جاء نصر الروم كما حدد القرآن ، وكان هذا هَتْكاً للحجب ، حجاب الزمان ، وحجاب المكان ، وحجاب الناس ، وأوحى به الحق سبحانه عالم الغيب المطلق لرسوله ﷺ .

والغيب المطلق هو الذى لا يعرفه إلا الحق ـ تبارك وتعالى ـ وليس له مقدمات، ويكشفه الله لمن يرتضيه، مصداقاً لقوله ـ سبحانه: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن]

وهذا الغيب[1] المطلق يختلف عن الغيب المقيّد الذى له مقدمات ؛ ما إن يأخذ بها الإنسان ويرتبها حتى يصل إلى اكتشاف سرٍّ من أسرار الكون.

والحق ـ سبحانه ـ هو القائل:

﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

وهكذا نعلم أن كل المكتشفات كانت موجودة فى الكون ومطمورة فيه ؛ وجعل الله ـ تعالى ـ لكل مستور منها ميلاداً ، فالبخار واستخدامه فى الحركات كان له ميلاد ؛ والكهرباء كان لها ميلاد ؛ واكتشاف الذرة كقوة ومصدر للطاقة كان له ميلاد، وكل مُكْتَشف ومُخْتَرع له ميلاد ، وتتوالى مواليد الغيب مستقبلاً ، وفى ميلادها

---

(١) الغيب : مصدر ويُسمّى به ما غاب واستتر ، قال الحق : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ .. (٣) ﴾ [البقرة].
والغيب : هو ما غاب عن العيون كالجنة والنار والملائكة والجن ، وجمعه غيوب. قال تعالى :
﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١٠٩) ﴾ [المائدة]. [القاموس القويم جـ ٢ / ٦٤].

إيمان اليقين بمن أخفاه وأظهره ، وهو الله الحكيم.

وقد يأتى هذا الميلاد بكشف وبحث ؛ وقد يُظهره الله بدون بَحْث ؛ أو يُظهره صدفة؛ مثلما أظهر قانون الطفو النابع من قاعدة «أرشميدس» ومثلما أظهر الحق ـ سبحانه ـ قانون الجاذبية صدفة ؛ أى : أنه سبب من الأسباب جعل عبداً من عباده يبحث فى شىء، فيظهر له شىء لم يكن يبحث عنه ؛ ولذلك نسب الحق ـ سبحانه ـ الإحاطة له ـ سبحانه.

وهنا يقول الحق ـ سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ .. (١٢٣) ﴾ [هود]

ولم يقل : « إليه يَرْجع الأمر كله » ، لأنه سبحانه ضبط كل مخلوق على قدر.

ولله المثل الأعلى : كما تضبط أنت المنبه على ميقات معين ، وكما يضبط المقاتل القنبلة لتنفجر فى توقيت معين ، والكون كله مُرتَّب على هذا الترتيب.

والله ـ سبحانه ـ القائل :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

فكل شىء إنما يرجع إلى الله فى التوقيت الذى شاءه الله.

أو : أن الأمر هو كل ما يتعلق بكائن حى ؛ لأن الحق ـ سبحانه ـ قد خلق فى الكون أشياء وترك ملكيتها له ـ سبحانه ـ والحق ـ سبحانه ـ لا ينتفع بها ، أما الإنسان فينتفع بها ، وإن كان لا يقربها ولا يملكها، مثل: الشمس التى ترسل أشعتها، ويستفيد الإنسان بضوئها[1] وحرارتها ، وهى لا تدخل فى ملكية الإنسان ؛ لأنها من

---

(١) وصف الله تعالى الشمس فى قرآنه، فقال: ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً .. (٥) ﴾ [يونس]، وقال عنها: ﴿ .. وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) ﴾ [نوح] والسراج: المصباح يعطى ضوءًا ويبعث حرارة.

أساسيات الحياة ؛ لذلك لم يجعل للإنسان الذى خَصَّه الله بخاصية الاختيار حق ملكيتها أو الاقتراب منها ؛ حتى لا يعبث بها.

وكذلك كل أساسيات الحياة جعلها الحق - سبحانه - فى سلطته وحده ، ولم يَأْمَنْ أحداً من خلقه عليها ، مثل الأرض بعناصرها ، وكذلك الماء والهواء حتى لا يعبث أحد بأنفاس الهواء لأحد آخر.

شاء الحق سبحانه أن يجعل الأساسيات فى يده دون أن يُملِّكها لأحد ؛ رحمةً منه بنا ، ذلك أنه - سبحانه - علِمَ أن الإنسان بما تعتريه من أغيار قد يسىء استخدام تلك الأساسيات.

وسَخَّر الله هذه الأساسيات لخدمة كل المخلوقات(١)، وسخَّر بعض المخلوقات ليسُوسها الإنسان ، وبعض المخلوقات الآخر لم يستطع الإنسان تسخيره ، وحتى قوة الإنسان نفسه؛ شاء الحق - سبحانه - أن يجعلها أغياراً ؛ فالقوى يسير إلى الضَّعْف(٢) ؛ والفقير قد يصبح غنياً.

---

(١) يقول تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم] وقد جمعت هاتان الآيتان أساسيات الكون التى تحدث عنها فضيلة الشيخ الشعراوى: السماوات - الأرض - الماء - الثمرات - الفلك - البحر - الأنهار - الشمس - القمر - الليل - النهار.

(٢) وفى ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم].

وهكذا يَثْبت لنا أن كل ما نملك موهوب[1] لنا من الله ـ تعالى ـ وليس هناك ما هو ذاتيٌّ فينا ، وما نملكه اليوم لا يخرج عن الملكية الموقوتة ، فإذا جاء يوم القيامة؛ رجع كل ما نملك لله ـ سبحانه وتعالى.

ولذلك يقول الحق ـ سبحانه :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

ولذلك أيضاً تشهد الجوارح على الإنسان؛ لأنها تخرج عن التسخير الذى كانت عليه فى الدنيا[2].

وإذا كان الحق ـ سبحانه ـ يقول هنا:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٢٣)﴾ [هود]

فهو ـ سبحانه ـ يقول فى آية أخرى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَـوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ[3] الثَّرَىٰ (٦)﴾ [طه]

وكأن الحق ـ سبحانه ـ ينبه البشر منذ نزول القرآن إلى أهمية ما تحت الثرى من كنوز يمتنُّ الله ـ تعالى ـ بها على عباده أنه يملكها.

---

(١) يقول الله تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ [يس] .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢)﴾ [فصلت] .

(٣) الثرى : التراب الندىّ أو التراب مطلقاً، قال تعالى : ﴿ وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦)﴾ [طه] أى: ما تحت جميع طبقات الأرض. [القاموس القويم ـ ١/١٠٧].

ونحن نعيش الآن باستخراج المكنوز الذى تحت الثرى.

وحين يقول الحق - سبحانه هنا - فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ .. (١٢٣) ﴾ [هود]

ففى ذلك تنبيه لكل إنسان ، ليعمل مُستْهدفاً النجاة حين لا يكون لنفسه على نفسه سبيل يوم القيامة.

وليعلم كل إنسان أن كل ما يستمتع به هو من فيوضات الحق الأعلى الذى أعطى الإنسان قدرة من باطن قوته ـ سبحانه ـ وأعطاه غنًى من باطن غنَاه ـ سبحانه ـ وأعطاه حكمة من باطن حكمته ـ سبحانه ـ وأعطاه قبضاً[1] وبسطاً من باطن قدرته ـ سبحانه ـ وكذلك أعطى لعبيده من كل صفة بعضاً من فَيْضها ، ثم تظل الفيوضات للحق ـ سبحانه وتعالى.

وحين يشاء فهو يسلب كل الفيوضات ويعود الأمر إليه ، لأن الأمر كله له سبحانه.

فإنْ حُدِّثتَ فى القرآن بأمر تغيب عنك مقدماتُه، فاعلمْ أن الذى أنزل هذا الكتاب لا يعزب[2] عن علمه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض.

---

(١) يستعمل القبض كناية عن ضيق العيش، والبسط كناية عن سعته . كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥) ﴾ [البقرة] أى: يضيق الرزق ويوسّعه على من يشاء. [القاموس القويم : ٩٦/٢] بتصرف. وبسط اليد: يُكنى به عن الكرم والسخاء أو عن الإسراف وكثرة إنفاق المال، ويقول تعالى عن نفسه: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ..(٦٤) ﴾ [المائدة] كناية عن الكرم والسخاء [القاموس القويم ٦٦/١].

(٢) عزب الأمر يعزب: بَعُد وغاب وصَعُب مطلبه، قال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس] ، أى: لا يغيب ولا يبعد عنه أى شىء، فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء. [القاموس القويم: ١٨/٢].

ولذلك كان الرسول ﷺ على ثقة أن الحق ـ سبحانه ـ حين أمره أن يتوعد أعداء الدين فهو يُطمئنه أن المرجع فى كل الأمور إليه ـ سبحانه.

واطمأن الرسول ﷺ والذين معه أن أعداء الدين إنْ لم يُجازَوْا فى الدنيا، فغداً ترجع الأمور كلها إلى الله ، وإن كان الحق قد ملَّكهم أشياء؛ فسيسلُبهم هذه الملكية فى الآخرة ، وإنْ كان قد أعطاهم الخيَار[1] فى الدنيا ؛ خيَار أنْ يؤمنوا ويطيعوا ، أو أنْ يكفروا ويعصوا[2] ؛ فهذا الاختيار سيزول عنهم فى الآخرة ، وكل مالك لمُلْك يصير مُلْكه بعده إلى الله.

ومادام الأمرُ كذلك فلنعبد الله وحده ـ سبحانه ـ لأنه صاحبُ الأمر فيما مضى ؛ وله الأمر الآن ؛ وله الأمر فيما يأتى.

وهو ـ سبحانه ـ الذى شاء، فجعل للإنسان ثلاثةَ أزمان: زمان سَبقَ وجود آدم ؛ وزمان من بعد آدم إلى وجود أىٍّ منا ؛ ثم زمان مستقبل إلى ما لا نهاية ، وبذلك يكون لكل منا زمان ماضٍ ؛ وزمان حاضر وزمان مستقبل ، وكل منا يدور فى فلك الأحداث[3].

---

(١) الخيار : اسم من الاختيار. وخيَّرته بين الشيئين أى : فوَّضْتُ إليه الخيار، وتخيَّر الشىء: اختاره. والاختيار: الاصطفاء وكذلك التخيُّر. [لسان العرب ـ مادة : خير] بتصرف.

(٢) وقد جاء هذا فى آيات كثيرة، منها:
ـ ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف]
ـ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣)﴾ [الإنسان]
ومبدأ الإسلام العام أنه: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. (٢٥٦)﴾ [البقرة]

(٣) الحدث من أحداث الدهر: النازلة. وحَدَثان الدهر وحوادثه: نُوَبُه ومصائبه. [اللسان ـ مادة : حدث].

ومن المنطقى بعد أن تستمتع بوجـودك فى الحياة ؛ وتنضج عقلياً أن تتساءل عن ماضيك ، وتاريخ الجنس البشرى.

وأنت - فى هذه الحـالة - تكون رَهْناً بثقـة المحـدِّث : هل يقول الصدق أم يقول الكذب ؟ خُصوصاً إذا كان الحديث عن تاريخ ما قبل آدم ، ولابد أنْ تقـول لنفـسك : لا يمكن أن يُحـدِّثنى عن ذلك إلا مَنْ خلقنى[1].

وساعـة يُبلِّغكَ رسول الله ﷺ عن بداية الخلق قـائلاً : «كان الله ، ولم يكُنْ شىء غيره»[2].

ومعنى ذلك أن الصادق الوحيد الذى يمكن أن نقبل منه كلاماً عمَّا فاتَ قبل آدم هو الله ـ سبحانه وتعالى.

وإنْ سـألتَ : لمـاذا وُجـدتُ فى زمنى هذا ، ولم أوجـد فى زمن آخر؟ هنا سـتقـول لنفسك إنْ كنت مؤمنـاً : « إن مشيـئة وإرادة مَنْ أوجدنى هى التى رجَّحتْ وجودى فى هذا الزمن عن أى زمن آخر ».

ولابد أن تسأل نفسك : وما المطلوب منى ؟

---

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. ﴿٥١﴾﴾ [الكهف] ، وقال تعالى عن خلق الملائكة: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف]

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٣١/٤)، والبخارى فـى صحيحه (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين، وتمامه: «كان الله ولم يكن شىء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب فى الذكر كل شىء، وخلق السماوات والأرض».

وستجد أن المطلوب منك هو حركة الحياة ؛ لأن تلك الحركة هى الفاصل بين الحياة والموت ، والحق يقول: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ[1] فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود]

فقد أعطاك الحق ـ سبحانه ـ العقل لتفكر ، وأعطاك الطاقة لتفعل، وسخَّر لك الكون بالمطمور فيه من الرزق ؛ لتستخرجه وتتعيش منه.

وهكذا يتضح لك أن كل شيء يحتاج منك أن تتحرك ، وأنت فى حركتك تحتاج لطاقة تأخذها من الأعلى منك وتعطى للأدنى منك ؛ لذلك أنت تأخذ طاقة من الأعلى منك ، وتُعطى للأدنى منك.

وأنت تعلم أن قمة المطلوب منك أن تُصلى بين يدى الله خمس مرات كل يوم؛ لتشحن طاقتك وتخرج للحياة بعد أن تُجدِّد ولاءك لمن خلقك وخلق الأكوان كلها ، وإنْ أحسنتَ الوقوف بين يدى الله سيأتى مستقبلك مبنياً على هذا الإحسان.

والحق ـ سبحانه ـ يعطينا مثلاً لهاتين الحركتين ، فيقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. (٩) ﴾ [الجمعة]

هذه حركة يأخذ فيها الإنسان طاقة من الأعلى، فالسعى إلى ذكر

---

(١) استعمره فى المكان : جعله يعمُره. قال ابن منظور فى [اللسان ـ مادة : عمر]: «استعمركم فيها، أى: أذن لكم فى عمارتها واستخراج قومكم منها، وجعلكم عُمَّارها».

الله وترك البيع من أجل ذلك يعطى الإنسان طاقة إيمانية ، يظهر أثرها فى الحركة الثانية من حركات الإنسان.

ولذلك يقول الحق - سبحانه - بعد هذا:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا[1] فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

ولذلك يقـول الحق - سـبحـانه - فى هذه الآية التى نحن بصـدد خواطرنا عنها:

﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣) ﴾ [هود]

أى : أطـع الله فى أمـره ؛ لأنه - سـبحـانه - الأعلى منك ، بأن تؤدى المطلوب العـبـادى من : صلاة ، وزكـاة ؛ وصيـام ، وحج إنِ استطعتَ لذلك سبيلاً ، لتاخذ من المدد الأعلى ما يعـينك فى حركتك الثانية التى تتحركها فى الكون.

ومن العـجيب أن حـركتك فى الكون الأدنى تُعـينك على حركـتك لاستمداد الطاقة من مُـكوِّن الكون - سبحانه.

فـأنت حيـن تصلى تحتـاج لِسَـتْـر عورتك بثـوب ، وحـتـى تأتى بالثوب لا بد لك من أن تعتمد على حركة الفلاح فى الزراعة ، وحركة

---

(١) انتشـر الناس: تفرّقوا وتصرّفـوا فى معايشهم. قـال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم] أى : تتصـرفون في معـايشكم وتسعَـوْن فى الارض، وقال : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا .. (٥٣) ﴾ [الاحزاب] انصرفوا كل إلى حال سبيله. [القاموس القويم: ٢/٢٦٦].

العامل فى النَسْج ، وحركة التاجر فى البيع ، وحركتك فى عملك الذى يتيح لك أجراً تشترى منه الثوب.

وبذلك تكون قد أخذتَ كل علوم الحياة ؛ لكى تذهب للصلاة لتأخذ المدد من المدد الأعلى.

وهكذا تجد أنك فى حركة دائرة ؛ تأخذ المدد من الأعلى لتعطى الكون الأدنى ، وتأخذ من الأدنى ما يتيح لك الوقوف بين يدى صاحب المدد الأعلى.

وبهذا يثبت لك أن الحركة فى الحياة الحاضرة لكل إنسان بالنسبة لعمره فى الحياة، هى استقبال[1] من المدد الأعلى ، وانفعال مع المدد الأدنى ، وكل منهما يعين على الآخر ؛ لذلك فعليك أن تعبد الله بأن تنظِّم حركة حياتك على ضوء منهجه ـ سبحانه.

واعلم أنه ستصادفك المصاعب فإن صادفتك فتوكل على الله ، وتلك فائدة من فوائد استمرار ولائك لله الذى تأخذ منه المدد.

ولذلك «كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة»[2].

(١) فعن طريق عبادتك يكون العون من المدد الأعلى يقول الحق: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ [الفاتحة] فعلينا العبادة الخالصة لنفوز بعون المدد الأعلى، وقد كان دعاء إبراهيم عليه السلام عندما أودع هاجر وإسماعيل عند البيت الحرام : قال فى دعائه: ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم] « من مفهوم مأثورات الإمام».

(٢) عن حذيفة رضى الله عنه قال : «كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى» أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩).

ومعنى «حزبه»[1] أى خرج عن أسبابه ، لذلك فهو يذهب إلى المسبب الأعلى ، فإنْ عبدتَ الله وتوكلتَ عليه ؛ فهو يعينك ؛ لأنه ـ سبحانه لا يغفل عما نعمل.

وهذه الآية تدلُّك على السعادة فى الحاضر والمستقبل ؛ لأنك إن كنت ترعى الله فسبحانه يكتب لك الحسنة بعشر أمثالها ، وقد يضاعف عن ذلك[2] ، وتُكتب السيئة بمثلها.

وبذلك تكون هذه الآية قد استوعبت وانتظمت حال الإنسان : قبل حياته ، وحاضر حياته ، ومستقبل حياته إلى أن تقوم الساعة.

يقول الحق ـ سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

فدعوة الله بالطاعة ، ودعوة الرسول بالسلوك السَّوىّ يعطى للمؤمن حياة الحياة ، وهى حياة تعيش فى معية الله.

---

(١) حزبه أمر: أصابه، إذا نزل به مُهِمٌّ أو أصابه غَمٌّ. وأمر حازب وحزيب: شديد. وحوازب الخطوب ـ وهو جمع حازب ـ وهو الأمر الشديد. [لسان العرب: مادة: حزب].

(٢) يقول الحق سبحانه : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦٠)﴾ [الأنعام] ويقول أيضا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة].


سورة يوسف

